مدرسة الإسكندرية

اللاهوتي ومعرفة الله

عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات (١)

مركز الأبحاث بالمجلة

إن لم تؤمنوا فلن تفهموا

العدد الخامس - ٢٠١٠

مجلة مدرسة الإسكندرية

عدد ٥

اللاهوتي ومعرفة الله
عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيات

إعداد مركز الأبحاث بالمجلة

مدرسة الإسكندرية

اللاّهوتي ومعرفة الله

عند القديس غريغوريوس الناطق بالإلهيّات (١)

إعداد مركز الأبحاث بالمجلة

لقد حفلت كتابات القديس غريغوريوس النزينزي بالحسِّ اللاّهوتي والذي انعكس في تعليمه، ممّا جعله أهلاً للقب "الناطق بالإلهيات". من هنا نستشرف أهميّة دراسة فكره في هذا الإطار. إنّ القديس غريغوريوس لم يتبنْ الفكر اللاّهوتي المُنعزِل عن الاختبار الروحي، إذ كان اللاّهوتي، في نظره، هو مَنْ يجتاز مرحلتي التطهُّر والاستنارة حتى يصل إلى المعرفة الإلهيّة. ومَنْ يُطالع كتابات القديس غريغوريوس النزينزي يرصُد خبرة نُسكيّة مُدوَّنة ومرتبطة ارتباطًا جوهريًّا بمعرفة الله، وهو ما صدرت فيه الكثير من المؤلّفات الدراسيّة في القرن العشرين. وقد لاحظ العالِم *Jean Plagnievx* أنّه، في فكر القديس غريغوريوس النزينزي، لا يمكننا الفصل بين حديثه اللاّهوتي عن معرفة الله وبين وسائل التطهُّر التي من خلالها تنفتح آفاق الاستنارة على السرِّ الإلهي. ولعلّ مَنْ يقرأ عظاته اللاّهوتيّة (٢٧ ـ ٣١)، يجد دفاعًا رصينًا عن عقيدة الثالوث، قد استهلّه بمقدّمة بلاغية تُؤكِّد على أهميّة النقاوة كمدخل للاستنارة الإلهيّة.

إنّ العلاقة بين اللاّهوت والتطهُّر ومن ثمّ الاستنارة هو ما سنتناوله بالتفصيل، مستعينين بالفصل الأوّل من كتاب Beeley[1]؛

"Gregory of Nazianzus on the Trinity and the Knowledge of God"

[1] Christopher A. Beeley, *Gregory of Nazianzus on the Trinity and the Knowledge of God* , Oxford university press, pp. 63-91

أولاً ـ اللاّهوتي وحياة النقاوة

ضرورة حياة النقاوة

إنّ التقاء موسَى باللّه على جبل سيناء هو النموذج الذي يُورده القديس غريغوريوس للإشارة إلى التحوُّل الذي يحدث للمسيحي، وما يتبعه من نموٍ في معرفة اللّه، إذ يقول:

"أنا أصعدُ إلى الجبل باشتياقٍ شغوفًا بأملٍ، ولكنّي في نفس الوقت خائفٌ بسبب ضعفي، لأدخل السحاب وألتقي اللّه، كما يأمر هو. فهل من هارون يصعد معي ويقف الى جانبي، وإن اضطرّ أنْ يبقَى خارج السحاب. هل من ناداب أو أبيهو أو أحد الشيوخ، ليصعد ويقف بعيدًا على قدر نقاوته κάθαρσις. ولكن إنْ كانوا من الجمهور وغير مؤهّلين لذلك التأمُّل الفائق ـ غير طاهرين ἀναγνος ـ فلا يقتربوا أبدًا، لأنّ ذلك ليس آمنًا. ولو كان أحد قد تنقَّى على الأقل في ذلك الحين، ليبقَى أسفل ويسمع فقط الصوت والبوق، وكلمات التقوى فقط، ولينظر إلى الجبل وهو يُدخِّن ويُومِض، إنّه رعبٌ وعجبٌ لِمَنْ لا يستطيعون الصعود، وفي الوقت نفسه مَبْعَث تعجُّب وإعجاب" [٢].

إنّ القديس غريغوريوس كأسقفٍ، مُثقَّل بهمِّ التعليم، فضلاً عن خدماته الليتورجيّة والرعويّة، وقد حاول جاهدًا أنْ يقود شعبه إلى تلك المعرفة الإلهيّة، مؤكِّدًا على عموميّة وشموليّة تلك الدعوة. فقد أوَّل النصَّ الكتابي السابق مُستخدمًا إياه لشرح أُطر لاهوتيّة وعقائديّة، فضلاً عن إرساء مبادئ روحيّة من خلال الإشارة إلى العَلاقة الجوهريّة بين تناول اللاهوت والنقاوة الشخصيّة. فمقياس المعرفة ليس الحصيلة الذهنيّة ولكن مدى النقاوة ومن ثمّ الاستنارة. وكما يبدو من طرح القديس غريغوريوس فإنّ الصعود إلى الجبل هو الدعوة العامة ولكن المشروطة بالنقاوة والتي تتفاوت، ويتفاوت معها مدى الاقتراب،

[2] Orat. 28.2

مُشدّدًا في الوقت ذاته على الخطر الذي يُحدِق بمَنْ يقترب دون النقاوة[٣]. وفي مثالٍ آخر، نجده يُشير إلى لوحي الحجر في يد موسَى النبي كرمز للمعرفة الإلهيّة؛ فالوجه الخارجي المنقوش من الحجر هو المنظور لمن هم أسفل، بينما الوجه الداخلي لا ينظره إلاّ من قطعوا شوطًا في حياة النقاوة. تلك الفكرة وجدت لها مكانًا في نصوص الكتّاب المسيحيين اللاّحقين؛ مثل مؤلّف القديس غريغوريوس النيسي، حياة موسى.

وفي سياق الجدل اللاّهوتي الذي كان يصبغ تلك الحقبة، نجده يشير إلى الذين يحاربون العقيدة، واصفًا إياهم بالوحوش، هؤلاء يُحذِّرهم القديس غريغوريوس ليفرّوا من الجبل بعيدًا، خوفًا من أنْ تسحقهم كلمة الحق. من هؤلاء؛ أفنوميوس، الذي أنكر إلوهيّة كلّ من الابن والروح القدس، والذي عُرِفَ عنه مناوئته للقديس غريغوريوس، فضلاً عن أصحاب عقيدة الشبيه بالجوهر وهم أحد أفرع الأريوسيّة التي كان لها صوتٌ في مدينة القسطنطينيّة[٤].

ويتّفق التقليد السكندري وبالأخص كتابات القديس كليمندس والعلاّمة أوريجانوس[٥] مع فكر القديس غريغوريوس والذي يُشدِّد على العَلاقة بين الحديث اللاّهوتي ونقاوة الشخص وهو ما يَظْهَر في عظته السابعة والعشرين، إذ يقول:

"ليس لكلّ إنسان من الناس، ليس لكلّ إنسان أنْ يتفلسف عن معرفة اللّه، ليس ذلك أمرًا زهيد الثمن، ولا هو من شأن الزاحفين في التراب[٦]. كما أنه ليس واجبًا في كلّ حين، ولا أمام الجميع ولا في كلّ شيء. ليس ذلك من

---

[٣] هنا استعان القديس غريغوريوس اللاّهوتي بتحليل العلاّمة أوريجانوس الذي ميّز فيه بين الإيمان البسيط الذي يعتمد على المعنَى المباشر وبين الإيمان الأعمق الذي يعتمد فهم ما وراء النصّ الكتابي من إشارات. وقد رأى العلاّمة أوريجانوس أن المؤمنين البسطاء يدركون فقط المعنَى المباشر وليس روح السفر. Cf. *Princ*. 4.2.1-2.

[4] John Macgukin, *St.Gregory*, p. 277; Norris, *Faith Gives Fullness*, p. 108.

[5] Cf. Origen's Comm. in Jn.: 10.40.283; Princ.: 1.1.7 ; Cels.: 6.69; ad hoc Moreschini, *Filosofiae Letteratura*,pp. 100-112.

[٦] أي الذين لم يستطيعوا أن يتخلّصوا من أهوائهم ومشاغلهم الأرضية.

شأن كلّ الناس، بل من شأن الذين تمرّسوا على التأمُّل وارتقوا فيه، وقبل ذلك، من شأن الذين طهَّروا النفس والجسد أو الذين هم، على الأقل، في طريق ذلك التطهير. لأنه من الخطر أن يمسّ غير الطاهر شيئًا طاهرًا، كما هي حال العيون الضعيفة أمام أشعة الشمس" [٧]

إنّ معرفة الله ليست نظريّة، ولكنها عمليّة تحوُّل مستمر، لذا فإنّ محاولة المعرفة بمنأى عن ذلك التحوُّل هي التي تؤدِّي إلى امتلاك العلم الذي ينفخ بحسب تعبير القديس بولس (انظر: ١كو٨: ١). ويُقدِّم القديس غريغوريوس تلك الفكرة في عظته العقائديّة الأولى والتي ألقاها في مدينة القسطنطينيّة[٨] مُستندًا على العبارة الأفلاطونيّة القائلة بأنّه؛ "يجب على الشخص أن يُطهِّر نفسه وحينئذ يقترب ويلمس ما هو طاهر" [٩].

كيف يحيا الإنسان حياة النقاوة:

إنّ النقاوة مطلب إنجيلي، كما أنّ التطهُّر κάθαρσις هو ضرورة مسيحيّة تظهر في التغيُّر الذهني والسلوكي والحياتي للمسيحي. ليس هناك شروط خاصة للنقاوة فالكلّ مدعو لاجتياز تلك الخبرة، إذ يقول القديس غريغوريوس: "رجل وامرأة، مُسن وشاب، ساكني المدن والقرى، المواطن الخاص والقائد العام، الفقير والغني. إنّ الفكرة ذاتها [النقاوة] تدعونا جميعًا. لذا دعونا نُغيِّر حياتنا" [١٠]. إنّ النقاوة هي حراك دائم وتغيُّر مستمر وهو ما يطرحه القديس قائلاً: "قدِّم نفسك الآن كشخصٍ جديدٍ، مختلف في الصفات، مُتغيِّر تمامًا... يجب أنْ تكون في تحوُّل دائم، ونمو، تكون خليقة جديدة، تائبًا حين تُخطِىء، مُتقدِّمًا للأمام إنْ كانت حياتك فاضلة" [١١].

---

[7] Orat. 27.3
[8] Orat. 20.4
[9] *Platonis opera*, ed. J. Burnet, vol. 1. (Oxford, Clarendon Press: 1900) Phaed. 67 b. ad hoc Gregory's orat. 2.71; 39.9.
[10] Orat. 19.6
[11] Orat. 44.8

في عظته الثانية عن الظهور الإلهي، يُقدِّم لنا القديس غريغوريوس رؤيته حول ضرورة التطهُّر للقاء الله، مُستخدِمًا تعبيرات ما بين المخافة والنقاوة والامتلاء والاستنارة، هنا ينكشف السِرُّ الإلهي المكتوم منذ الدهور، فيبدأ المسيحي في الإنارة لمن هم حوله عن تلك المعرفة الساميّة:

"أمّا نحن فقد أُعطيَت لنا النعمة لكي نهرب من ظلمة هذه الشرور ونحيا في الحقِّ ونخدم الله الحي الحقيقي. وهكذا نسمو فوق الخليقة، وفوق كلّ ما هو زمني، لنتأمّل في الله والأمور الإلهيّة بما يليق بالنعمة التي فينا. وقبل أنْ نناقش هذه الأمور ينبغي أولاً أن نبدأ فلسفتنا حيث يقودنا سليمان، القائل: «الحكمة هي الرأس، فاقتن الحكمة» (أم ٤: ٧). وماذا كان يقصد هو بقوله: «رأس الحكمة مخافة الله» (أم ١: ٧). لا ينبغي أن نبدأ بالتأمُّل العقلاني طارحين مخافة الله. فالتأمُّل خارج حدود التقوى يوقع الإنسان في هوّة عميقة. لذا يجب أنْ نمتلِىء ونتنقَّى بالمخافة فنستنير به، حينئذ يُؤهَّل الإنسان إلى ما هو أسمَى. حيث تُوجد المخافة، تُحفَظ الوصايا، وحيث تُحفَظ الوصايا يتنقَّى الجسد الذي هو سحابة تُغطِّي النفس وتحجب عنها النور الإلهي. ولكن حيثما توجد النقاوة توجد الاستنارة، والاستنارة هي شبع الذين يطمحون في الأمور العظمَى، أو بالحري إلى الكائن الأعظم الذي يسمو فوق كلّ عظمة. فنحن إذن لا نستطيع أن نلتقي مع الطاهر ما لم نُطهِّر أنفسنا أولاً، وما لم تكن لنا خبرة بني إسرائيل (خر٣٤: ٣٠)، الذين لم يقدروا أن ينظروا وجه موسى (٢ كو٣ :٧) فطلبوا منه أن يضع برقعًا على وجهه... إنّ الكلمة هو في طبيعته مُخيف لغير المستحقين، ولكنه في محبّته وحنانه يمكن لهؤلاء، الذين قد تحوّلوا بالطريقة التي وصفناها، من الاقتراب إليه، الذين قد نفضوا عنهم كلّ ما هو دنس، والأهواء العالميّة من نفوسهم، وقد كنسوا وزيّنوا نفوسهم بمحاسبة النفس... والذين يهربون جانبًا من الشرير ويصنعون الفضائل ويجعلون المسيح يسكن داخلهم بالكليّة، أو على الأقل بقدر الإمكان وعندئذ نكون قد أنرنا أنفسنا بنور المعرفة. لذا دعنا نتكلَّم عن حكمة الله المكتومة في سِرٍّ (١كو٢: ٧) ونُضيء للآخرين. تعالوا نُنقِّي أنفسنا ونكون مُتَّجهين نحو الكلمة، حتى ونحن قد عملنا الصلاح بقدر جهدنا، تصير نفوسنا على صورة

اللّه ونستقبل الكلمة داخلنا عندما يأتي، ليس فقط نتقبّله، بل بالحقيقة نتمسّك به في داخلنا ونُظهره لآخرين" [١٢].

لقد وصف القديس غريغوريوس النقاوة كعمليّة مستمرّة أو سلسلة متتابعة من الارتقاء السلوكي ومن ثمّ الروحي، وهو ما يتأتّى بحفظ الوصايا. فالمسيحي الذي يخضع لعمليّة التطهُّر يستنير بالضياء الإلهي، فيحدث له تحوُّل سلوكي ظاهر للجميع.

"فالطاهر هو مَنْ يمكنه الاقتراب من اللّه بالطريقة التي يحياها؛ أي من خلال التطهُّر. أتريد أن تصير لاهوتيًّا يومًا ما، وتكون جديرًا [بمعرفة] اللاّهوت، احفظ الوصايا. اجعل طريقك مستقيمًا من خلال التأمُّل في الوصايا حيث إنّ الأعمال πράξις المسيحيّة هي درجات الارتقاء إلى الثيؤريا (التأمُّل في الإلهيّات) θεωρία" [١٣].

وما التطهُّر سوى الإماتة التي يحياها مَنْ أراد أنْ يشْخَص في اللّه؛ إماتة أعضاء الإنسان العتيق والتهيُّئ للقيّا اللّه الكلمة واستقباله في منزل النفس، وقتها يستشعر المسيحي بنسمات الخلاص تهبُّ على حياته مُحمّلةً بأريج الأبديّة العطر. وقد تحدّث القديس غريغوريوس عن تلك الإماتة في تأمُّله لحادثة لقاء زكّا بالمخلِّص (لو٩: ١ ـ ١٠)، إذ يقول:

"مَنْ أراد أنْ ينظر إلى الربِّ يسوع ـ حتى لو كان قصير القامة مثل زكّا ـ فعليه أنْ يصعد إلى أعلى الجميزة، أي يميت أعضاءه التي على الأرض، ويرتفع فوق أدناس الجسد. هكذا يستقبل اللّه الكلمة ويسمع منه هذه الكلمات «اليوم حصل خلاص لهذا البيت». حينها يمسك بالخلاص ويأتي بالثمار المطلوبة" [١٤].

---

[12] Orat. 39.8-10
[13] Orat. 20.12
[14] Orat. 20.9

التدريبات الروحيّة التي تُساعد على النقاوة:

الأنقياء هم مَنْ يعاينون اللّه، هكذا أعلن المسيح ودوَّن الإنجيليون (انظر: مت ٥: ٨)، كما كتب القديس يوحنّا بحسٍّ إسخاطولوجي: «ولكن نعلم أنه إذا أُظهِر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو، وكلّ مَنْ عنده هذا الرجاء به، يُطهِّر نفسه، كما هو طاهرٌ» (١يو ٣: ٢ ـ ٣). وانطلاقًا من الفكر الكتابي عن النقاوة، كتب القديس غريغوريوس: "لنُنقِّي καθαρίσωμεν أنفسنا من دنس الجسد والروح، لنغتسل ونصير أنقياء. لنُقدِّم أجسادنا وأنفسنا ذبيحة حيَّة مُقدَّسة مقبولة عندالله، فإنّه ليس شيءٌ عزيزٌ على الإنسان النقي ὁ καθαρὸς أكثر من النقاوة والتطهُّر"[١٥].

إنّ الوسائل التي تساعد المسيحي في اجتيازه عمليّة التطهُّر لكثيرةٍ؛ فالتذكُّر الدائم لله والتأمُّل في النصوص الإلهيّة والصلاة[١٦] والتسبيح والشهادة والانسحاق القلبي[١٧]، هي من الأمور التي تعين المسيحي في دورته الروحيّة من التطهُّر وصولاً للاستنارة. ويرسم لنا القديس غريغوريوس، كمعاصريه، خريطةً لتلك الأعمال ويسترسل في شرحها والحديث عن نفعها، تأثُّرًا بالنمط الرهباني السائد آنذاك؛ منها اطعام الفقراء وترتيل المزامير والسهر الليلي الطويل في دراسة الكتب المقدَّسة والتأمُّل في الموت وسِرّ الصليب والآلام[١٨]. إلاّ أنّ التعليم النسكي عند القديس غريغوريوس كان معتدلاً إلى حدٍّ بعيد، يراعي الخطاب العام للجماعة المسيحيّة، فقد تحدّث عن صلاح المشاعر الزوجيّة وسمو العفّة الروحانيّة عن العفّة الجسديّة[١٩].

---

15 Orat. 11.4
16 Orat. 27.4
17 Orat. 16.2
18 Orat. 27.7
19 Orat. 27.9

كما ينصح القديس غريغوريوس الموعوظين بالاستعداد اللاّئق لنوال نعمة المعموديّة من خلال السهر والصوم والصلاة والدموع والتصدُّق على المعوزين والفقراء[٢٠].

تقديم الإيمان المسيحي في تعبيرات هلّينيّة بهدف الكرازة:

لم يكن القديس غريغوريوس من مناهضي الفلسفة، ولكنه كان بمثابة امتدادًا سكندريًّا في التعامل معها. فقد ورث من سابقيه؛ كليمندس السكندري وأوريجانوس، المفهوم الجديد للفلسفة من حيث كونها طلب الحكمة الروحيّة السامية، فالفلسفة في منطقها المسيحي هي عيش الإنجيل بوعي وإدراك[٢١]. إذ بعد مغادرته لأثينا وعودته لكبادوكيه، عزم على "العمل بالفلسفة وطلب الحياة السامية"[٢٢] مُخضعًا مهارته البلاغيّة والخطابيّة لخدمة التعليم في حقل الكنيسة[٢٣]، مُطوِّعًا إياها لطاعة المسيح. وقد كان الهدف دائمًا من التواصل مع الثقافة المعاصرة، هو تقديم الإيمان المسيحي في قالب ملائم للكرازة؛ هنا وقد قدَّم القديس غريغوريوس الإيمان المسيحي في قالب هلّيني لأغراض تبشيريّة[٢٤]. ولكن صياغة مضمون الإيمان الثابت في إطار معاصر تتطلّب بصيرة ووعي بما لا يتناسب مع الحقّ الإلهي من تعبيرات وتصويرات وأفكار، وهذا ما برع فيه الآباء السكندريون ومن بعدهم الكبادوك[٢٥]. وقد أشار العديد من العلماء إلى أنّ القديس غريغوريوس كان يستخدم صياغات ثقافيّة فلسفيّة في عظاته بهدف تقديم البشارة المسيحيّة لمجتمعه، وحث سامعيه على التحوُّل إلى معرفة الله. وبالرغم من ذلك، فقد

---

[20] Orat. 40.31
[21] De Vita sua, 320-324
[22] Orat. 7.9
[23] De Vita sua, 270
[24] John Macgukin,*op. cit.*, p. 75
[25] Louis Bouyer, *The Spirituality of the New Testament and the Fathers*, Trans. Mary P. Ryan.(London: Burns and Oates, 1963), 338.

كان دائمًا يُحافِظ على السمة الرسوليّة لفكره اللاّهوتي، وكان ذلك هو الهدف الرئيس لخدمته ورعايته [٢٦].

والقارئ لكتابات القديس غريغوريوس وبالأخص عظتيه الرابعة والخامسة، سيلاحظ مدى إدراكه ووعيه بالمنهج والأفكار الأفلاطونيّة والأرسطيّة وصولاً إلى الأفلاطونيّة الحديثة، وهو ما يظهر في حديثه عن الطهارة حينما اتّخذ العبارة الأفلاطونيّة المُعبِّرة التي تقول: "ممنوع على غير الطّاهر أن يقترب ممّن هو طاهر"[٢٧] مُطبِّقًا إياها على العلاقة التي تحكم المسيحي بالله. وقد وضع مقاربات بين الفلسفة المسيحيّة الحياتيّة والفلسفة اليونانيّة النظريّة، موضِّحًا أنّ الأخيرة لم تصل للحقّ، بينما الأولى قد تبدو بسيطة ولكنها من الداخل سامية وتقود إلى الله[٢٨]، فالمسيحي هو "محبّ الحكمة [الفيلسوف الحقيقي] بالحقّ، على النقيض ممّن ينقصهم تلك الحكمة"[٢٩].

الفلسفة في فكر القديس غريغوريوس هي تفلسف ولكن من نحو الله[٣٠]. فهي ليست قاصرة على شريحة مُعيّنة ولكنها متاحة للجميع من أي خلفيّة اجتماعيّة[٣١] أو ثقافيّة، فقط ممّن تتّسم حياتهم بفضائل ضبط النفس والصدق والعطاء والسهر والصوم والبساطة والاحتمال والصلاة مع الوعي الكامل بالفداء الإلهي الذي أتمّه المسيح قابلاً الآلام عنّا[٣٢].

---

[26] Cf. Pinault, Henri: *Le Platonisme de Saint Grégoire de Nazianze. Essai sur Les relations du Christianosme et de L Hellénisme dans son oeuvre théologiqe*, La Roche-sur-Yon, (France: G.Roma, 1925).
[27] J. Burnet, Phaed. 67 b.
[28] Orat. 25.4
[29] Orat. 25.6-7
[30] Orat. 27.3
[31] Orat. 26.10
[32] Orat. 26.11-12

لقد جمع القديس غريغوريوس، كأسقف، ما بين التأمُّل وليد الوحدة والخدمة وليدة العمل الكنسي العّام[٣٣]، مؤكِّدًا وجوب الحياة بتوازن واعتدال بين سمو التأمُّل وفاعليّة الخدمة. وقد كان التوازن الروحي في حياة القديس غريغوريوس، فضلاً عن علمه الواسع وثقافته المتّسعة سببًا رئيسًا في تبوئه مكانة عُليا في كلا المجالين؛ الرهباني والرعوي.

القديس غريغوريوس ينتقد العبادات الوثنيّة وشرورها

لم تكن الوثنيّة قد تلاشت بالتمام من كلّ فئات المجتمع حينما كان القديس غريغوريوس أسقفًا، وهو ما يذكره بشيءٍ من الأسَى، إذ تمّ إقصاء المُفكِّرين المسيحيين من مراكز التعليم، مع إعادة العبادة الوثنيّة على يد زميل الدراسة القديم يوليان، الذي كان مُشارِكًا في التضحية للآلهة الوثنيَّة[٣٤]. لذا فقد كان يتطرَّق القديس غريغوريوس للحديث عن شرور العبادة الوثنيّة، ناصحًا سامعيه أنْ ينبذوا تلك العبادة معتنقين الإيمان المسيحي[٣٥] فالعبادات الوثنيّة هي غريبة كليَّة عن اللاّهوت المسيحي[٣٦]. من هنا نفهم تأكيده على الشعب المسيحي بضرورة عدم تأخير العماد[٣٧] لئلا يصيروا عُرضة للعودة للفكر الوثني مرّةً أُخرى. هذا المفهوم نلمحه في عظته عن عيد الأنوار المُقدَّسة، إذ يقول: "مرّةً أُخرى يا يسوعي! مرّةً أُخرى هو سِرٌّ، سِرٌّ بلا غشٍّ أو تشويش، ولا يمُتُّ بصلةٍ إلى أخطاء اليونانيين أو جنونهم ـ هكذا أدعوهم كما يفعل كلّ شخصٌ ذو شعور سليم ـ بل هو سِرٌّ جليلٌ وإلهي ينتمي إلى المجد السماوي. لأن عيد الأنوار المُقدَّسة [عيد الغطاس] الذي قد جئنا لنحتفل به اليوم هو بمناسبة معموديّة مسيحي؛ النور الحقيقي الذي يُنير لكلِّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم

[33] Cf. Orat. 14.4; De Vita Sua 300.311. On Gregory's combination of monastic retreat and priestly service, Cf. Gautier , La retraite.
[34] Daley Brian E., *Early church Fathers: Gregory of Nazianzus*, (London: Routledge, 2006), pp. 6-7.
[35] Orat. 38.4-5; 39. 1-7; 40.3-4
[36] Orat. 26.6-7
[37] Orat. 11.40

(يو ١: ٩)، هو يسند طهارتي ويُعضِّد النور الذي أخذناه منه في البداية من فوق، ولكن قد أطفأناه وشوَّهناه بالخطيَّة"[٣٨].

يرى القديس غريغوريوس أنّ الصورة الإلهيّة في الإنسان تُوجد داخل النفس، ومن الطبيعي أنّ النفس لا توجد دون جسد، لكنّها سامية عليه نتيجة عمل الله في خليقته. فقد خلق الله أولاً، العالَم العقلي - أي الملائكة - وهو العالَم الأكثر قُربَى لله ثمّ خلق تاليًا، العالَم المادي - أي الأرض - والغلاف الجوّي، وفي آخر الكلّ خلق الله، الإنسان، خلق جسده من المادة ووهبه حياته ووجوده من نسمته الخاصة، فأصبح بذلك الإنسان هو الكائن المخلوق على صورة الله، ونال نعمة الوجود نتيجة لذلك.

ويكمل قديسنا كلامه عن الإنسان قائلاً إنّه "مشهد من الخليقة المرئيّة"، تلك الخليقة الماديّة التي تعمل كلّها للخير وتُمجِّد الله بطريقتها. ثمّ يتأمّل بعمق في خلقة الإنسان قائلاً عنه إنّه: "مَلِك الكائنات على الأرض، ولكنّه مُتوَّج من أعلَى، هو مخلوق أرضي وسمائي في نفس الوقت، هو خاضع للزمان، لكنّه غيرُ مائت [إشارة إلى نعمة عدم الموت]، هو مرئي ومُدْرَك بالعقل، هو موضوع بين اثنين: العظمة والتواضع"[٣٩].

الجسد والنفس في ضوء السقوط وتدبير الخلاص

يرى القديس غريغوريوس أنّ الفساد الذي نتج من السقوط قد لحق بطبيعتنا؛ تلك الطبيعة التي ابتعدَت بدورها منذ تلك اللحظة عن خطة الله الأصليّة لنا منذ البدء. فقد خُلقنا روحًا وجسدًا؛ صورة مركّبة، وذلك من إشفاق الله علينا، لكي إذا ما افتخرنا وتكبّرنا - نظرًا لأنّ طبيعتنا قابلة للسقوط - بسبب أي عظمة أو مجد روحي نجد أنّ الجسد يكون هو الضابط

[38] Orat. 39.1
[39] Orat. 38.11

لذلك الافتخار بواسطة المُعاناة والألم الذي نتحمّله فيه، لتكون دافع لتدريبنا وتقديسنا[٤٠].

ويجدُر بنا القول، أنّ هذا لا يجب أنْ يحيد بنا فنقول بأنّ الجسد هو شيءٌ دنسٌ وغير طاهر أو غير مُكرَّم من الربِّ، وقد تنبَّه قديسنا لهذه النقطة جيِّدًا ونجده يُشدِّد في تعليمه؛ كيف أنّ الجسد شريك أساسي للروح في قبول نعمة الخلاص. ولعلّنا نتساءل الآن كيف أنّ الجسد هو رفيق النفس؟ فيُكمِل قديسنا كلامه قائلاً: "لكيما نتقدَّم نحو اللّه، تحتاج النفس إلى الجسد عاملاً معها أثناء جهادها في العالم، فيعيش الاثنين كمُتقبِّلَيْن لنعمة المسيح وعطيّة الروح القدس".

لكي ننال تلك الحياة الأبديّة يجب أنْ نُخضِع الجسد وأنْ نُدرِّب حواسه المُختلفة. كيف يمكن ذلك دون شركة مع المسيح في موته وقيامته؟ وهل يتحقَّق ذلك دون سِرِّ المعموديّة!!

ولكي يستوفي القديس غريغوريوس تلك النقطة الخاصة بالجسد، نجده يُنبِّهنا بأنّ المسيح القائم لا يزال يملك جسدًا وقد ظهر به لتلاميذه بعد قيامته بشكلٍ منظورٍ وملموسٍ وبجسدٍ مُمجَّد بمجدِ القيامة وعدم الفساد[٤١]. إذن فالمسيحي ليس هو مَنْ يتخلَّص من الجسد[٤٢].

بعد كل ذلك، يأتي القديس غريغوريوس ليُقدِّم لنا تعليمًا نقيًّا عميقًا عن الخلاص وتدبير اللّه، فقد اتّخذ المسيح جسدًا ونفسًا عاقلةً لكيما يُخلِّص كلاًّ منهما، مع توضيح أنّ النفس تحتاج أكثر من الكلِّ إلى النقاوة نتيجةً لطبيعتها السامية، وأيضًا لأنّ الخطيّة، غالبًا، تبدأ من النفس لأنّها مرتبطة بإرادة الإنسان واختياره الأخلاقي، لذا فهي تحتاج أكثر إلى الشفاء.

---

40 Idem.
41 Orat. 40.45
42 Orat. 41. 5

وفي نصٍّ من العظات على الظهور الإلهي، يتكلَّم القديس غريغوريوس قائلاً: "فلنُطهِّر كلَّ عضوٍ يا أخوتي، لنُطهِّر كلَّ حاسةٍ، لا ندع فينا شيئًا دنسًا من ميلادنا الأوَّل، لا ندع فينا شيئًا غير مُضِيء". وقد كان كثيرًا ما ينصح من أجل العمل على نقاوة الحواس وأعضاء الجسد، حتّى يمكننا أنْ نُقدِّم أعضاءنا الأرضيّة لله (كو٣: ٥)، وكلّ رغباتنا الطبيعيّة تصير روحيّة[٤٣].

إنّ المسيح يُخلِّصنا بصيرورته إلى ما نحن عليه وهو يشفينا بأخذ بشريتنا المنكسرة لنفسه، فما لا يُؤخَذ لا يُخلَّص، ويؤكِّد القديس غريغوريوس على أنّ الجسدَ جزءٌ ضروريٌ من الكيان الإنساني الذي جاء الربُّ يسوع لأجل فدائه. ففي بداية العظة التاسعة والثلاثين يتكلَّم عن تطهير الجسد، ثمّ بعد ذلك يتكلَّم عن عملية طرد الأرواح الشريرة من النفس لكي يسكن فيها المسيح[٤٤]. وفي عظته الرثائيّة لأخيه قيساريوس في نياحته يُكمِل قائلا: "ثمّ بعد ذلك بقليلٍ، تتسلَّم النفس جسدها [رفيقها]، التي اشتركت فيما مضَى [معه] في السعي للأمور العُليا، من الأرض التي أُخِذَ منها وقد أُؤتمِنَ معها، وبطريقةٍ معروفةٍ لله الذي ربطهما معًا ومزجهما، حيث تدخُل النفس [مع الجسد] لميراث المجدِ في ذلك المكان. ومنذ ذلك الحين، وخلال ارتباطهما الوثيق؛ فالنفس التي قد اشتركت في مشقّة الجسد، ستهبه أيضًا نصيبًا من فرحها، جامعةً الجسد معها بالكليّة ويصير واحدًا معها في الروح القدس وفي العقل وفي الله، والمائت والمتغيِّر يُبتلَع من الحياة"[٤٥]

وهنا يتلاقَى القديس غريغوريوس بنفس الروح الواحدة مع القديس إيريناؤس في تلك النظرة للسقوط والخلاص، والنظرة إلى الجسد والنفس، فنجد إيريناؤس يقول في كتابه "ضِدَّ الهرطقات": "كما كان في بدء خلقتنا، في آدم، أنْ اتّحدَت نفخة الحياة الصادرة من الله بالجبلة الطينيّة،

[43] Orat. 40.38-40
[44] Orat. 39.8-10
[45] Orat. 7.21

فأقامت منها الإنسان كائنًا حيًّا عاقلاً، هكذا أيضًا صار في الزمان الأخير، أنْ اتّحد كلمة الآب وروح اللّه بالصورة القديمة التي للجبلة الآدميّة، فصار الإنسان بذلك حيًّا وكاملاً ومُتقبِّلاً الآب الكامل، حتّى إنّه كما أننا في آدم الطبيعي نحن جميعًا أموات، هكذا أيضًا في الروحي نصير جميعًا أحياء"[٤٦].

ضرورة عمل نعمة الله من أجل النقاوة

النقاوة في فكر القديس غريغوريوس هي هبةٌ من المسيح للمسيحيين. ونراه يؤكِّد أنّ اللّه هو المصدر الأساسي لتلك النقاوة[٤٧] وفي نفس الوقت لكي نُحافظ عليها ينبغي القيام بجهدٍ نسكيٍّ وأعمالٍ روحيّةٍ جادةٍ. ويُشدِّد قديسنا على أهميّة لقب المسيح: "المُخلِّص"، فهو الذي يُنعِم علينا ببهجة كلّ الفضائل التي نُمارسها وهو الذي يُطهِّر حواسنا الجُسمانية أيضًا[٤٨]. إنّ الحياة الجديدة في المسيح يسوع، كهبةٍ من اللّه، تُمثِّل أحد الركائز الأساسيّة التي ارتكز عليها قديسنا في سلسلة عظاته عن الظهور الإلهي، ومن ثمّ نراه يُعطي اهتمامًا كبيرًا لعملية التطهُّر التي نتقدَّس من خلالها، ويُتمِّمها اللّه. إنّ اللّه على استعدادٍ دائمٍ أنْ يُعطي أكثر ممّا نسأل، فنراه يقول في إحدى عظاته: "هذا هو عيدنا الذي نحتفل به اليوم؛ مجيء اللّه إلى الجنس البشري، لكي نجعل طريقنا إليه... تاركين إنساننا العتيق ولابسين الجديد (أف ٤: ٢٢ ـ ٢٤)، لهذا ينبغي عليَّ اجتياز التحوُّل الحسن. وكما أتَى الألم من السعادة، هكذا تعود السعادة من الألم؛ «حيث كثرت الخطيّة، هكذا ازدادت النعمة جدًّا» (رو ٥ : ٢٠)، حيث إنّ مذاقة الثمرة حَكَمَت علينا، فكم بالحري أكثر آلام المسيح قد برَّرتنا"[٤٩].

---

[٤٦] رهبان دير القديس أنبا مقار، *التبني في المسيح يسوع في فكر آباء الكنيسة*، ط١ (القاهرة: دار مجلة مرقس، ١٩٩٤).

[47] Orat. 38.13
[48] Orat. 45.13-14
[49] Orat. 38.4

إنّ مصدر التغيُّر الذي يخضع له المسيحي أثناء مراحل التطهُّر، هو نعمة التبرير التي لربّنا يسوع المسيح، فهو طريق التطهير الأوحد الذي يجب اتّباعه[٥٠]. فنحن مهما عملنا لا نستطيع أن نُعطي بقدر ما نأخذ من الله.

ويوجِّه أيضًا القديس غريغوريوس حديثه إلى الطامحين أنْ يُصبحوا مُعلِّمي العقيدة المسيحيّة، فيحثّهم على الانتظار حتّى يتدرّبوا على الأعمال المسيحيّة والسلوك المسيحي فيصيروا بذلك ناضجين في الإيمان[٥١]، وبذلك ينمون في معرفة الله، الذي هو نفسه مصدر كلّ معرفتنا به.

ويؤكِّد القديس غريغوريوس على أنّه لا يجب أنْ نتخيّل، مثل الغنوسيين، بأنّ بعض الناس مؤهّلين بطريقة تلقائيّة لقبول الخلاص وفعل التقوى، بينما هناك آخرون غير مؤهّلين، ولا أنّ نجاحنا البشري هو نتاج جهدنا وحده. وبالأكثر أنّه من الضروري أنْ نُدرِّب أنفسنا بل ونتحكَّم فيها، لكن مع وعينا بأنّ خلاصنا هو من الله، وأنّ إمكانيّات الإرادة تأتي من الله. كما أوضح القديس بولس الرسول، قائلاً: «لأنّ الله هو العامِل فيكم هو أنْ تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرّة» (في ٢ : ١٣).

لقد استوعب القديس غريغوريوس، ومن ثمّ علَّم بأنّ نعمة الله غنيّة جدًا؛ فالتطهُّر المسيحي هو نِتاج الجهد البشري والتدريب النسكي، ولكن المُستنِد والمُنطلِق والمدفوع بالنعمة، كهبة من الله.

بالرغم من أنّ قديسنا لم يقتحِم المنطقة الجدليّة الخاصة بالعلاقة بين النعمة الإلهية والعمل الإنساني، كما اقتحمها الطوباوي أغسطينوس، فإنّ القديس غريغوريوس مثله مثل باقي لاهوتيي عصره وضَّح ببساطه أنْ التطهُّر يحتاج جهدًا إنسانيًّا جادًّا بطريقة مستيكيّة (باطنيّة)، ولكن هذا الجهد

[50] Orat. 19.6
[51] Orat. 32.13

الإنساني هو نتيجة نعمة الله في المسيح[٥٢]. فالوعي السليم بصلاح الله ونعمته يجب أنْ يُوجِّه الشخص ليكون أكثر اجتهادًا بشأن تطهير نفسه.

المعمودية كأساس للحياة الجديدة ونعمة التطهير

في عظته الأربعين يحثُّ القديس غريغوريوس سامعيه على التحوُّل إلى المسيحيّة، ومن ذلك المُنْطلق يتكلَّم عن المعمودية موضِّحًا لهم أنّها هبةٌ أو نعمةٌ، لأنّها تُعطَى لِمَنْ هم مدينون[٥٣]. فمن خلالها ننال التطهير من الخطايا، ونحوز النقاوة[٥٤]. وبواسطة المعموديّة أيضًا تتحقَّق عملية إعادة خلق الإنسان، بواسطة عمل الله[٥٥]، فيوجهِّهم إلى المحافظة على هذه الهبات وتلك النِعَمْ التي أُعطيَت لهم، بعدما اعتمدوا[٥٦]، وذلك بأنْ يعملوا بجدٍّ لأجل نقاوتهم؛ "لأنّنا نتكوَّن من عنصرين، أعني نتكوَّن من النفس والجسد، وطبيعتنا بها جزء منظور وآخر غير منظور، أيضًا تطهيرنا مُزدوج؛ «بواسطة الماء والروح» (يو٣ : ٥). جزءٌ نتقبَّله بصورة منظورة وماديّة، والآخر نناله معه بصورة غير ماديّة وغير منظورة. الأوَّل رمزي τυπικός، والآخر حقيقي ἀληθινός، مُطهِّرًا الأعماق. [هذا السِرُّ] يأتي ليعين ميلادنا الأوَّل [الذي صار عتيقًا بالسقوط]. المعموديّة تُجدِّدنا عِوضًا عن العتيق، وعلى شبه الله، بدلاً ممّا نحن عليه الآن. [المعمودية] تُعيد صياغتنا بدون لهبٍ، وتُعيد خلقتنا بدون أنْ تُحطِّمنا. لذا، في كلمةٍ واحدةٍ، عمل المعموديّة يُفهَم أنّه عهدٌ مع الله لأجل حياة ثانية، وطريقة أكثر نقاءً للحياة"[٥٧].

بتلك الكلمات الرائعة يُحدِّثنا قديسنا عن نعمة التطهُّر في المعمودية، في عظته الأربعون. ذلك التطهُّر الذي يجب أنْ يناله المؤمنون دون تأجيل بغضِّ النظر عن السن أو العمل أو الحالة الاجتماعيّة. ذلك التطهُّر لازمٌ لكي ينعموا

52 Orat. 38.4
53 Orat. 40.4
54 Orat. 8.14
55 Orat. 40.7
56 Orat. 40.34
57 Orat. 40.8

بتغيير حياتهم إلى الحياة الجديدة، ويدخلون في نموٍ دائمٍ نحو الله وتغيُّر مستمر، ولكن إنْ أخَّروا المعمودية، من المُمكن أن يظلّوا غير أنقياء حتّى يوم الدينونة، لأنّه لا يعرف أحد وقت انتقاله"[٥٨].

النقاوة هي حركة دائمة في حياة اللاّهوتي

"كُن مُجتهدًا من أجل نقاوتك"[٥٩]. بهذه الكلمات التي خاطب بها القديس غريغوريوس شعبه، نستطيع أنْ نستوضح فكره بخصوص النقاوة، فهو لا يراها حالة من الكمال يُنْجِزها الإنسان ثم يتوقَّف عن السعي، لكنّها عملية مستمرَّة من النمو الدائم نحو الله. وعندما يتكلَّم قديسنا عن اللاّهوتي، نجده يهتمُّ بحياته مع الله؛ فحياة اللاّهوتي هي حياة شركة مع الثالوث بالدرجة الأولَى. هي عَلاقة كيانيّة وشخصيّة في دائرة النور الإلهي، وبمقدار عُمق تغيُّرنا، تكون معرفتنا لله ومعاينتنا للنور.

هنا يُشدِّد قديسنا على ضرورة نقاوة اللاّهوتي، فنجده يقول: "وهو [الله] يريدها [النقاوة] لنا، كتقدمته الوحيدة، التي هى قلب منسحق، وذبيحة تسبيح (مزمور٥٠ :٢٣)؛ (مزمور٥١: ٢٩)، وخليقة جديدة في المسيح (٢ كو ٥ :١٧)، والإنسان الجديد (أف ٤ : ٢٤)، كما تُدعَى في الأسفار المقدّسة"[٦٠].

فاللاّهوتي يُبرهِن على صدق كلامه بواسطة حياته، بنقاوته ونموّه الدائم في حياة القداسة حتّى يعرف الله بصورة أكثر كمالاً. ويستخدم قديسنا ذلك المبدأ للتذكير بأهميّة دور المعموديّة كمدخل لذلك التطهُّر الذي أشرنا إليه سالفًا. وأيضًا تكلَّم عنه مرّة ثانية في عظته اللاّهوتيّة عن الصعود لجبل سيناء، وأيضًا إشارته لمَثَل الزارع؛ فهو لا يرى أنّ التطهُّر يجب أنْ يكون بطريقة جامدة أو حرْفيّة يتمُّ إنجازها ضمن جدول زمني مُعيَّن، بل هي حالةٌ من النقاوة يحتاج إليها دائمًا كلّ لاهوتي. فالنقاوة ليست مُجرّد كلمات رنّانة وعبارات

58 Orat. 40.17-18
59 Orat. 40.34
60 Orat. 16.2

بليغة بل هي دليلٌ هامٌ على عُمق معرفة الله في اللاّهوت المسيحي، لاحظ هنا أنّ مَنْ يقول هذا الكلام هو واعظٌ بليغٌ وفيلسوفٌ مُتمكِّنٌ.

في نفس العظة عن صعود موسَى لجبل سيناء، نجد القديس غريغوريوس، وبالاستعانة بكتابات العلاّمة أوريجينوس بخصوص طبيعة الإعلان الإلهي، يوضِّح أنّ فهم الأسفار المُقدّسة ومعرفة الله يتمُّ بحسب مستويات مختلفة وذلك تُحدِّده الحالة الروحيّة للإنسان، هنا يُشدِّد قديسنا على أنّ المستوى الأبسط والأوضح هو في متناول القسم الأكبر من السامعين (المبتدئين) بينما تُستعْلَن المعاني الأكثر عُمقًا للذين هم نامون في القداسة ويصفهم بالذين تغيَّروا إلى الشكل الإلهي[٦١].

وفي الأجزاء الأخيرة من مجموعة العظات على الظهور الإلهي، يُوضِّح ويُحذِّر القديس غريغوريوس بأنّ دينونة المسيح ستكون نورًا للأنقياء، إذ ستتحوَّل لرؤية ومعرفة الله في ملكوت السموات، بينما ستكون ظلامًا وإقصاءً بعيدًا عن الله، للّذين هم دنسون[٦٢]. وسنتكلَّم لاحقًا عن اللاّهوتي والاستنارة في فكر القديس غريغوريوس النزينزي.

يُتْبَع

[61] Cf. Gregory's orat.43.72; 28.2; Origen, Princ. 4.2.2.
[62] Orat. 40.45